يوم الانتخاب

يسرى الأيوبي

استمر الضرام بين مرشحي الحزبين المتنافسين "ثابت" و"حامد" واشتد بينهما الكر والفر كلاهما نكل على صاحبه، شمس لا يلين.. صراع بين العقيدة والجاه سلطان الحق وسلطان المال.. فأيهما يجلى في حومة الميدان وأيهما يبـرز ويكـون لـه السيادة؟

كان ثابت شاباً أسمر، لبق الشمائل، نبيل الخلق، شـريف الـنفس لا يعـرف إلا الخطوط المستقيمة ولم يتعلم أبداً فن التكالب والمراءاة والكذب والنفاق أو تمريـغ الجباه والنفخ في بوق كل حاكم مما يتقنه منافسه الذي كان يؤمن بمبادئ ميكافيللي في أن الغاية تبرر الواسطة مهما تدنت.. ولقد أنزف ماله القليـل فـي المعركـة الانتخابية بينما كان لخصمه التالد والطريف..

ولكن كفة ثابت كانت ترجح فيما استطاع أن يجمع حوله من معتنقـين لأفكـاره.. فحزبه يضم نخبة ممتازة من المثقفين وهو إلى هذا قد تغلغل إلى عامة الشعب من صغار الموظفين والعمال بينما لم يكن لحامد إلا من تتفق مصالحهم ومـصالحه، ومن يستطيع أن يشتريهم بالمال أو يغريهم بالحيلة والوعود البراقة..

ولكن الريح ما لبثت أن عاكسته مخلفة وعدها ومالأت خصمه، وانجلت العاصـفة عن انتصار حامد وخذلان ثابت.. وتوج الباطل فإذا الجميع أيد مـصفقة وأكـف مهنئة وألسنة مزغردة.

عاد ثابت إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل جريح النفس جهد الجسم قد فقـد الإيمان بقيم الخير في الحياة.. إن لها منطقاً غير منطقه.. لقـد شـعت الحقيقـة الرهيبة لعينيه ولكن ما باله يتجاهل؟.. أليست هي بنفسها التي خذلت يومـاً عليـا وأظهرت معاوية؟

لقد ران عليه الأمر فما يطيقه، ودجا الكون لناظريه.. حتى "مليحة" زوجته الحبيبة التي استقبلته متهللة شغوفة لم تقو على بعث السرور في نفسه فقبلها بفتور.. وهو الذي كان يعود إليها كعاشق طال به البعاد متلهفاً محموم الشوق أبـداً.. وارتمـى على الأريكة ساهماً يرنّق النظر بالأفق البعيد.

فاقتربت منه واحتضنت رأسه

- "ثابت.. والله إنك المنتصر.. وليس على الذهب غـضاضة أن ينفـق البهـرج والزائف يوماً فلا يذهب بك الأسى يا حبيبي.. إن مجـدك صـميم وان جحـدك التوفيق.. إنك رجل نبيل النفس ماضي الجنان، شديد الأيد ثابت العقيدة.. وما أنت بمخذول.. وليست هذه المعركة الأخيرة.."

وتنهد ثابت من فؤاد كليم:

-"أعلم يا مليحة ولكنني أتألم لأنني أرى الإصلاح عسيراً طويل الأمد وسيبقى هذا الشعب المسكين يرزح تحت عبئه الثقيل لأنه لا يحسن انتخاب مـن يمثلونـه ولا يفرق بين منقذه وجلاّده.. وسيبقى الأدعياء والمهرجون سادة الموقف زمناً لـيس بالقصير.. الغفلة والنفوس الوسنى المتذبذبة الوجلة الخدعـة هـي مـا تقتلنـي.. يالمهزلة الانتخاب يا مليحة! ويا لحز الأسى الذي يشعر به كل فكر مستنير.. لقد سمحنا للجهل المدلهم والغفلة المخزيـة أن تقـرر مـصائرنا دسـتورنا قانوننـا وحكامنا.. حكم الأكثرية.. والأغفال.. لقد تبذّل الحكم الرفيع حتى لعافـه الطبـع السليم ويأباه من يريد الخير للمواطن.. الأصوات تشرى بثمن بخـس أو غـال.. بأموال الدولة أو الأموال الخاصة وبكل وسيلة إرهابية أو ترغبين.. لا خيـار ولا تحييز، وإن وجدا لا حكم ولا تمييز.

-إنه لحكم رفيع حين يستنير الشعب ويشعر الفرد بالمسؤولية والكرامة الشخصية وحتى لو بلغ هذا المستوى لا يؤتى ثماره والفرد مهدد بانتزاع لقمته لو شاء إعلان رأيه.. هل ألوم الشعب؟ هل ألوم العمال المساكين الذين جروا كالأنعـام لينفـذوا أغراض جزاريهم؟ هل تعلمين ما حدث يا مليحة؟..

وكانت كل جوانحها آذاناً مصغية وهي تسأل "ماذا يا ثابت؟.. إن الأمر يحيرني.. فلقد كنت على وشك الفوز؟

- " نعم يا مليحة.. ولكنك تعلمين أن كفة النائب لا ترجح ما لم يناصره العمـال فهم قوة لا يستغنى عنها في الملمات.. وكان الكثير منهم يؤيدونني ولكن صـاحب العمل احتكرهم احتكاراً مهنياً.. فلقد تبرع في أن يصدر لهم هويـاتهم وهويـات نسائهم وذويهم ودفع لشركتي السيارات في المدينة مبلغاً مغرياً ووضع يده عليهـا

جميعاً فأخلفوا وعدهم لي.. وراح ينقل الجميع إلى مراكز الانتخاب على حـسابه وهكذا أفلت الزمام من يدي واستطاع هذا الأمي الجاهل أن يـسلبني الآلاف مـن المؤيدين، ويسند بهم منافسي ويتصرف كما يهوى في مصائر هذا الوطن.. ولـن أضيف ما حدث من تزوير.. إن الأمر مخز حقاً..

- " ولكن يا ثابت أليسوا ذوي عقيدة؟.. كيف يسمحون لأنفسهم أن يخذلوا عقيدتهم بثمن زهيد تافه؟..

- " يا مليحة.. إن ذوي العقيدة المتينة نادرون.. وحتى هؤلاء ماذا كانوا يفعلـون لو هددهم رب العمل بفصلهم أكنت أستطيع أن أعيلهم؟ ولكن ما يحيرنـي كيـف استطاع منافسي أن يجتذب هذا الرجل الخطير إلى جانبه.. لم يكونا على وفاق من قبل.."

-" إنني أعلم يا ثابت.. لقد دفع ثمنا غالياً.. لقد انتصر انتصاراً "بيراوس" انتصارا خيرا منه الهزيمة..

- "كيف ماذا بلغك يا مليحة؟"

وابتسمت مليحة وأجابت:

-" باع سعادته في سبيل مجد زائف.. لم يستطع أن يغري الرجل بالمـال وهـو أوفر منه ثروة فتملق عاطفته بخطوبة ابنته المدللة.."

ورفع ثابت حاجبيه دهشة –"ماذا تقولين؟ هل ترك خطيبته الأولـى، تلـك الفتـاة الحلوة الذكية الفؤاد التي كان يعبدها في سبيل عانس حمقاء جاهلة عاريـة مـن الجمال؟

-" نعم يا ثابت لقد هجر الأولى هجراً غير كريم ولحق الـسراب.. أتغبطـه يـا ثابت؟"

وأجاب ثابت وقد غرق في بحار التفكير

"أبداً يا مليحة ولكن ما يدريك أنها إحدى حيله فإذا مانال بغيته كان حلاً في أن لا يفي بوعده.. إنه ماهر في انتحال الأعذار".

- فابتسمت مليحة ابتسامة فاتنة وأجابت

- : إن صفقته خاسرة على الحالين.. فإن تزوجها هدد سعادته وإن لم يفعل اتخـذ لنفسه عدواً خطراً يسمم مستقبله.. وأي هدف يسعى لتحقيقه؟.. لا شيء يا ثابت.. أما نحن لنا كل شيء.. الحب الذي لا يفنى والعقيدة التـي لا تمـوت والكرامـة الموفورة وملايين النفوس التي تنظر نحونا تحدق في النور وترقب انتصارنا.. إن صحراءنا واحة نضرة وواحتنا جنة سماوية، وجنتنا مؤكدة خالدة."

وضمها إلى صدره بعنف:

-"آه يا مليحة الحبيبة!" وأطبق بفمه على شفتيها وسبح لسانه في فمها ينـشد ورده فأحس من نشوته أنه يغسل عن نفسه غبار ألف نهار تعيس..

وعندما امتلأ منزله بالأصدقاء والشامتين أدهشهم أن على شفتيه ابتـسامة حلـوة منتصرة تنضح بالسعادة والاطمئنان..

* * *